رأي

تكوين عقل الأجيال الفلسطينية في المناهج الجديدة

إن نقد العقل الذي ستكوّنه المناهج الفلسطينية للأجيال القادمة، هو قضية من المفترض أن تكون في سلم أولويات المشروع النهضوي الفلسطيني، لأنه لا يمكن بناء نهضة بعقل غير ناهض. لذا لا بد من إجراء مراجعة شاملة لآليات هذا العقل ومفاهيمه وتصوراته ورؤاه . هذه المراجعة تهدف إلى التعلم من الأخطاء، والإفادة من العبر من أجل تدشين خطاب جديد في طرق التفكير.

هذه المقالة هي محاولة لطرح قضايا ذات طبيعة إشكالية لاستنهاض حوار وطني شامل يقوده المثقفون والمفكرون الفلسطينيون في الوطن والشتات، للكشف عن مكونات العقل الفلسطيني المتشكل الذي ستصقله المناهج الفلسطينية الجديدة.

عندما تتحدث المناهج الفلسطينية عن الأسس المعرفية والثقافية التي تستقي منها جذورها، فهذا أمر لا جدال فيه، لأن أي مناهج لا بد أن تنتسب إلى ثقافة معينة لتربي الأجيال على التفكير بواسطتها، وصقل عقلها من خلال محددات هذه الثقافة ومكوناتها، وفي مقدمتها الموروث الاجتماعي والثقافي، بما فيها القيم والتراث، والنظرة إلى المستقبل وإلى العالم والكون والإنسان. أما الإشكالية في موضوع المناهج الفلسطينية فهي في النظر إلى هذه الثقافة من منظور ستاتيكي (ساكن) فلا تراعي السياق التاريخي لها، ولا تحث على استنهاض العقل لمحاكاتها، بالتالي فإن العقل المتشكل سيكون محكوما بمجموعة من القواعد والمبادئ الجامدة توجهه قراءات سلفية عفا عليها الزمن أو قضايا أيديولوجية ظرفية طارئة، مما جعل المناهج تهتم فقط بصقل عقول الأجيال بالقراءات السائدة التي أنتجها العقل السلفي، ومطلوب من الأجيال إعادة إنتاجها. فالعقل هنا ينظر إليه كمحتوى، وليس كأداة فاعلة، تحكمه مجموعة المبادئ والقواعد الغيبية، والوضعية السلفية، وهو أسير لها، ومقيد بها، إنه لعب حسب القواعد، فهو عقل مكوّن (بفتح الواو وتشديدها) مفروض عليه نظام معرفي تحدد بواسطته مخرجات التفكير، والمعرفة وكيفية إنتاجها.

إن النتائج التي فرضتها الثورة العلمية بما فيها ثورة المعلومات أعادت الاعتبار لمفهوم العقل، فلم يعد مجموعة من المبادئ الجامدة المحكوم بها، بل أصبح العقل نشاطا منظما مبنيا على قواعد أساسها الواقع ومصدرها الأول الحياة الاجتماعية المتغيرة، التي تشكل الواقع الحي الذي يحتك به الناس، ويعيشون في كنفه. كما أن الحياة الاجتماعية ليست على نمط واحد وبالتالي تتعدد أنواع القواعد العقلية.

إن النتائج التي فرضتها الثورة العلمية بما فيها ثورة المعلومات أعادت الاعتبار لمفهوم العقل، فلم يعد مجموعة من المبادئ الجامدة المحكوم بها، بل أصبح العقل نشاطا منظما مبنيا على قواعد أساسها الواقع ومصدرها الأول الحياة الاجتماعية المتغيرة

إن العقل الذي تعمل المناهج على صياغته، هو عقل ذو طبيعة قيمية، وليس طبيعة معرفية، إن موضوع المعرفة في المناهج يرتبط بالسلوك والأخلاق، ويركز على التفريق بين الحسن والقبيح، وبين الخير والشر، ومهمة العقل ووظيفته حمل صاحبه على انتهاج السلوك الحسن، ومنعه من إتيان القبيح. العقل بهذا المفهوم تحكمه النظرة المعيارية إلى الأشياء، بمعنى أنه ذلك الاتجاه في التفكير الذي يبحث في الأشياء عن مكانها وموقعها في منظومة القيم والأخلاق والعادات التي يتخذها ذلك التفكير مرجعا له ومرتكزا. إن الخلل في هذا الفهم للعقل يكمن في اتجاهين: الأول أن المعايير السلفية لا تتناسب مع الواقع المعاصر؛ فالقيمة الأخلاقية إذا لم ينظر إليها ضمن سياقها التاريخي تصبح قاعدة جامدة من مكونات العقل يتحدد بواسطتها النظام المعرفي الأخلاقي. أما الخلل الثاني فيكمن في أن النظرة المعيارية هي نظرة اختزالية تختصر الشيء في قيمته، وفي المعنى الذي يضفيه الشخص أو المعلم أو المجتمع صاحب تلك النظرة. فالعقل هنا يرتبط بالذات وبحالاتها الوجدانية وأحكامها القيمية، ولا يرتبط بإدراك الأسباب أي بالمعرفة. لا يعني ذلك أبدا أن هذا العقل لا يمتد إلى ميدان المعرفة، ولكن هناك فرق جلي بين الاتجاه من المعرفة إلى الأخلاق، والاتجاه من الأخلاق إلى المعرفة، ففي الحالة الأولى تتأسس الأخلاق على المعرفة، أما في الحالة الثانية فتتأسس المعرفة على الأخلاق، وهي حالة لا تبنى على اكتشاف للعلاقات التي تربط ظواهر الطبيعة والمجتمع بعضها ببعض، وليست عملية ليكشف العقل نفسه من خلالها في الطبيعة والمجتمع.

إن عملية النقد المطلوبة تتطلب التحرر من إسار القراءات السائدة، وعدم التقيد بوجهات نظرها؛ وان ينظر إلى العقل من منظور علمي تتبنى فيه النظرة العلمية المعاصرة للعقل، والابتعاد عن التصور الذي لا يقوم على أساس علمي دون أن يجعل من هذا التصور حتى في قمة تقدمه الحقيقة المطلقة. أما على صعيد المعرفة، فإن الإيمان بقدرة العقل على تفسير الطبيعة يجب أن تكون غير محدودة، وأن تكون الثقة بالعقل ثقة كاملة. وفي مقابل النظرة المعيارية فهناك النظرة الموضوعية التي تبحث في الأشياء عن مكانتها الذاتية، وتحاول الكشف عما هو جوهري فيها، فهي نظرة تحليلية تركيبية تحلل الشيء إلى عناصره الأولية لتعيد بناءه بشكل يبرز ما هو جوهري فيه. إن تكوين عقول أجيالنا بهذا المفهوم يساعد في تدشين خطاب جديد في طرق التفكير.

صلاح الصوباني

مدير دائرة الدراسات/وزارة التربية والتعليم.